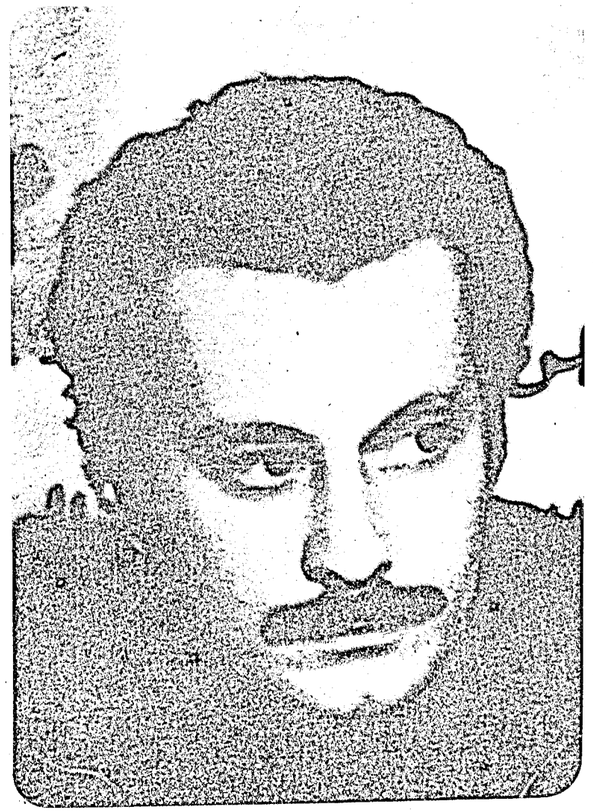

غزال يبشر بزلزال

محمود درويش

● يصدر قريبا المجلد الثالث من الاعمال الكاملة للاديب الكبير الشهيد غسان كنفاني • ويضم هذا المجلد دراسات غسان عن الادب في الارض المحتلة • وقد كتب مقدمته الزميل محمود درويش :

من الطبيعي ان يكون دمه قد جف • ومن الطبيعي ان يكون اصدقاؤه قد عادوا الى لغتهم • ومن الطبيعي ان نستعيد قدرة الكلام عنه كما نتحدث عن الانهار التي اخترقتنا وذهبت •

وهذا ما يحدث لي : ايام وايام احاول فيها ان اعتاد هذا « الطبيعي » لاكتب عنه في هدوء • ولكنه يطردني عن الورق ، فان حبره لم يجف • هو الذي يمنعني من ان أفي بوعدي ، هو الذي يمنعني عن الكتابة •

الكتابة ! كم نتساءل : ما هي ؟ ونتعثر • ذباب كثير يحط فوق الكلام الجميل • وكأنه الفلسطيني الوحيد الذي اعطى الجواب القاطع الساطع ، وكانت الشهادة شهادة ، وكأنه احد النادرين الذين اعطوا الحبر زخم الدم • وفي وسعنا ان نقول : ان غسان كنفاني قد نقل الحبر الى مرتبة الشرف ، وأعطاه قيمة الدم •

فيه حسم لتعدد اشكال سوء الفهم والتفاهم • وفي كتابته سطوة اليقين • من يتقن قراءته يطرح الاسئلة على مستويات مختلفة •

هنالك من يعتبر الحياة اتهاما وخيانة ، فيثني الكتابة عن فعاليتها لان الحرية لا تأتي بغير الموت !••• ومن هنا ، يتحول الموت لدى هؤلاء الى هدف في حد ذاته • « انت متهم الى ان تثبت موتك » داء شاع في حياتنا الفلسطينية ، فاتخذ الفاشلون فينا جثث الشهداء متاريس وخنادق وقاعات محاكم • اطلقوا النار على الذات مرة ، وانتظروا رصاص الاعداء ، مرة اخرى ، ليكون معيار الجدارة • هذا الطراز ذاته من النظر الى الحركة والى الاشياء يحول جثة غسان كنفاني الى قاعدة لاغتيال الكتابة • وهي ، بذلك ، تجرد كاتبنا من أية قيمة خلاقة عدا الموت •

وهنالك ، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال ، وشرعية الطلاق عن المغامرة ، والاحتبال على الحياة والخطر • هنالك من يعتبر الكتابة غاية في حد ذاتها •

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة • كان يكتب لانه يحيا • وكان يحيا لانه يكتب ويحبي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل • لم يكن الموت هدفه لانه لم يكن عاجزا عن الحياة في الكتابة ، ولانه لم يكن بعيدا عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع • وكان توحده في الفعل الكتابي ، والذي يبلغ حد التصوف ، نوعا من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم •

لقد سقط غسان كنفاني في ميدان الصراع • سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي • وقد اغتاله الاعداء لانه حمل فاعلية الكتابة التي تصنع جيلا سيعثر على اداة التعبير عن فاعليته في السلاح • ولذلك ، فان الدفاع عن غسان كنفاني ، أمام اخطاء من لا يرى فيه غير موته ، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة •

ويعرف الكاتب الثوري ان اداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شكل الكتابة لانها تميزه وسلاحه • وليس بوسع الكتابة ان تحقق اثرها النضالي الا اذا كانت كتابة ناجحة • فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الان ، تحت اي شعار كان ، لا يقل ضررا عن السلاح الرديء • وقد كان غسان كنفاني فعالا ومؤثرا باتقانه مهنة الكتابة ، بخصوصيته الفنية الجميلة ، وبطريقة توظيفه هذا الجمال • وليس بانقلاب المعادلة •

لن نلتقي به بعد ••• لن نسمع مزيدا من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون الى الكتابة بفضيلة القضية • ولكنه يقتحمنا دائما بقوة كلماته التي لا تموت • كم كتب الفلسطينيون وماتوا • ولكن حبرهم كان يجف مع دمهم • كتابته هو قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها • وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدأ من غسان كنفاني •

لماذا هو •• لا سواه ؟ تلك هي الهدية • ذلك هو النجم • هو الموهوب الذي عرفت كيف يربي موهبته وفي اي نهر يضعها •

لقد تمكن غسان كنفاني من اداء دوره ، لان له دورا ، ولانه مؤهل ، فنيا ، للقيام بهذا الدور • كان نتاج رحلة العذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية • وفي عمله الكتابي الذي مارس من خلاله دوره الاجتماعي والوطني تأريخ الحركة الفلسطينية في قلب فنان • لقد كان ثوريا من حيث هو كاتب ثوري • لم تنتزع هذه الصفة من لحظة الاستشهاد •

كان يعرف لماذا يكتب ولمن يكتب • ولكنه كان يعرف ايضا ان قيمة هاتين المسألتين مشروطة ، لانتاج الفن ، باتقان تطبيق المسألة الاخرى : كيف يكتب •

لم تسلم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقى بشكله الكتابي من حالة السكون الوصفي الى حالة ارقى واصعب بتأثير تعقد القضية التي تحتويه • ولم تسلم من مواجهة هذا السؤال الابدي : من يفهم هذا الاسلوب ؟ لم يكن غسان كنفاني سهلا كما يبدو لقرائه السطحيين • صحيح انه كرس كل طاقته الخلاقة ونشاطه الاجتماعي في خدمة قضيته الكبرى • وصحيح ان هذه القضية ، بجماهيرها واشكال صراعها كانت هاجسه العظيم • ولكن الكتابة ، كقضية ، كانت ايضا هاجسه • وان التعامل مع سؤال مثل « قضية الكتابة » جعله قادرا على التطور الدائم وحيا لى هذا الحد •

لم يستطع غسان كنفاني ان يكون مؤثرا وفعالا الا لانه كان كاتبا محترفا •• حتى في كتابته الصحفية او اليومية كان شديد الخصوصية والتميز والاتقان • رشيقا ومتوترا كغزال يبشر بزلزال •

كان ممتلئا بحيوية نادرة في هذا الجيل • كان مسكونا بكهرباء لا تنضب • ولم يترك لنشاطه الواعي مجالا واحدا للراحة • لم يقض اجازة لاستعادة قواه بين رواية واخرى ، او عمل واخر • لم يذهب للامتلاء بالتأمل من أجل تنفيذ عمل كتابي جديد • كان يجدد وقوده الابداعي بتبذير قواه • كان يتزود بالطاقة تلقائيا ، فالذاكرة الجماعية لا تستنزف • وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم •

هل كان حقا يشعر بموته المبكر ، فأطلق ينابيعه الى هذه الدرجة من الاسراف ؟ هل كان هاجس الموت يستدرجه لصب طاقاته في وقت قصير ؟ هل كان استشرافه لهذه النهاية ـ البداية دافعا لتناول كل اشكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحث ونقد ، ليسجل دمه على اصابعنا وذاكرتنا ؟ وهل كان يسبق الموت الى الحياة في الكتابة ؟

ربما • وربما كان هذا السباق احد اجمل تجليات « الانانية » الخلاقة والتفاني في آن واحد • انها شكل نادر من اشكال تحقيق حياته